جامعة دمشق ـ كلية الشريعة

مؤتمر التسامح الديني في الشريعة الإسلامية

ورقة مقدمة بعنوان

ثقافة التسامح بين الغرب والشرق

أ.د. وهبة الزحيلي

كلية الشريعة ـ جامعة دمشق

مؤتمر التسامح الديني في الشريعة الإسلامية
١٩ـ٢٠ /رجب/١٤٣٠هـ الموافق ١١ـ١٢ /تموز/٢٠٠٩م

ثقافة التسامح بين الغرب والشرق

أ.د. وهبة الزحيلي

التسامح أو السماحة في المفهوم الحضاري الإسلامي معناه: التزام ضابط التوازن والاعتدال فـــي خطاب الآخرين والتعامل معهم نظرياً وعملياً على أساس منهج موضوعي مرن، دون ضرر ولا إضرار، ودون انتظار مقابل أو جزاء.

وغايــته: الانفــتاح علـــى الشعوب الأخرى، وإشعاع الخير والمعروف، والحفاظ على ألق الحضـــارة، ونشر ثقافة الحوار ونبذ التعصب والصراع، واحترام كرامة الإنسان، والحرص على توفـــير الأمن والسلام، والحب والعطاء، والعيش الودّي المشترك بين المذاهب والأديان والفلسفات والقيم الخلقية السامية، ونشدان الاستقرار، وزرع الثقة والطمأنينة بين الناس.

وآفـــاق التســـامح في شرعة الإسلام لا تقتصر على الوسط الإسلامي وإنما تعم العالم كله، وتشـــمل مخـــتلف الأمـــم والجماعـــات، وأصحاب العقائد والأفكار من غير أي تفريق ولا تمييز، ولا تعصـــب ولا أحقـــاد، ولا توترات أو إثارة خصومات أو منازعات تفرّق ولا تجمع، وتُضعف ولا تقوّي، ولا تسمح أولا تُشعر بوجود امتيازات فئوية عنصرية أو طبقية أو دينية، أو غيرها مما يدمّر بنية المجتمع، ويؤدي إلى التصادم والفتن.

هـــذا التســـامح يتلازم فيه المبدأ مع المنهج النظري والتطبيقي، لتحقيق الغاية المرجوة، لأن طريقه واضح، وأصوله هي أصول الإسلام الكبرى في الحياة الإنسانية.

وتأصيله ثابت في السنة النبوية في حديث: { إني أرسلت بحنيفية سمحة }[١] وحديث: { أحب الدين إلي الحنيفية السمحة }[٢].

وأصـــوله أو أسسه خمسة، وهي: الإخاء الإنساني، والاعتراف بالآخر واحترامه، والمساواة بين الناس جميعاً، والعدل في التعامل، وإقرار الحرية المنظمة.

---

[١] رواه الإمام أحمد.

[٢] رواه البخاري وأحمد.

أما الإخاء الإنساني فلم نجد مثل القرآن الكريم والسيرة والسنة النبوية يشيدان به ويعضدانه، لأنـــه منطلق كل المعاني الكريمة، مثل قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا .. ﴾ الآية [سورة النساء: ١] وقول النبي عليه الصلاة والسلام في ميثاق حجة الوداع: { أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى }.

فالآيـــة الكريمة والقول النبوي الشريف يدلان على وحدة الأصل الإنساني، ووحدة الإنسانية، والإخـــاء الإنســـاني الواسع الشامل، والأسرة الإنسانية المتولدة من أب وأم واحدة، فلا عنصرية، ولا طبقية، ولا فوقية أو نبل أو شرف لجنس على آخر، أو عنصر على عنصر، وكل ما يهدر هذه المعاني فهو معادٍ لأصله، منتكس على فطرته السوية النقية.

والاعتراف بالآخر مسلماً كان أو غير مسلم هو منهج التعامل مع البشرية في القرآن المجيد، كما نلمس في آيات قرآنية كثيرة منها: ﴿ .. تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّـــةٍ إِنَّمَـــا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ ..﴾ [النحل: ٩٢] أي تتخذون أيمانكم على الوفاء بالعهد مكراً وخديعة لغـــيركم وتغريـــراً بهم، وتضمرون النقض والميل لغيركم، لأنهم أقوى وأغنى، فهذا إقرار واضح بوجـــود الدول والأمم والشعوب الأخرى، فلا يصح لأحد أن يطمس معالم هذا الواقع، وهو التعدد الأممي والدولي والشعبي، ويؤكد ذلك آية أخرى: ﴿ ولو شاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا، أَفَأَنـــتَ تُكْـــرِهُ الـــنَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٢] وهذا يعني الاعتراف بوجود الآخر، وبالتعددية بين الأديان والطوائف.

وأمـــا المســـاواة بين الناس جميعاً في الإنسانية فلأنهم إخوة، والإنسان أخو الإنسان أحب أم كـــره، وهـــم جميعاً من مخلوقات الله تعالى، والله رازقهم، وموجدهم ومميتهم، وحاشرهم إليه في ميعاد ثابت في علم الله سبحانه، قال النبي ﷺ: { الناس سواسية كأسنان المشط }[1].

وأمـــا العـــدل فـــي التعامل: فهو قمة الأخلاق، وتاج الفضائل، ورأس القيم العليا في معاملة الآخريـــن، وقد كان للمسلمين في عهودهم المتلاحقة أمثلة فذة ورائعة في معاملة الشعوب المفتوحة بلادهم أو غيرهم، عملاً بالتنزيل المجيد، مثل آية: ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُـــوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [المائدة: ٨] أي لا يحملنكم بغض قومهم وكراهيتهم على إلحاق الظلم بهم، اعدلوا فالعدل سياج التقوى لله تعالى، وهو أساس الملك، وبه دوام العمران والمدنية والحضارة.

---

[1] أخرجه ابن لآل عن سهل بن سعد (سبل السلام: ٣ / ١٢٩).

وأمــا إقرار الحرية المنظمة لكل إنسان فهو قوام الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لأن الاســتبداد والاستعباد والفوضى من طبائع البعيدين عن هدي الله تعالى، لاسيما المستعمرون منهم، فهم يقمعون حريات الشعوب المستضعفة، ويسلبون خيرات البلاد المستعمرة، ويخنقون نسائم الحــرية حــتى يبقى ظلمهم واعتداؤهم وتسلطهم. والحرية هي القائمة على النظام، البعيدة عن كل ألوان الفوضى، التي يعقبها الخراب والدمار وإماتة الإنسان.

قــال الله تعــالى مؤصلاً بعض أنواع الحرية وأخطرها وهي اختيار الإيمان والكفر: ﴿ وَقُلِ الْحَـقُّ مِــن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا... ﴾ [الآيــة: ٢٩] فهــي حرية قائمة على الإقرار بالحق وعلى المسئولية الراسخة بدليل التهديد على الانحــراف عــن مدلــول الحرية الصحيحة من غير إساءة ولا سوء اختيار. وفي قمة أنواع الحرية: الحــرية الدينية التي أعلن عنها القرآن الكريم في الآية: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦] والآية: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [سورة الكافرون: ٦].

إن هــذه الأصول الخمسة للتسامح منشؤها أن الإسلام دين عالمي أو ذو نزعة عالمية، ولا تلتقــي العالمية مع شيء مما يهدم برج التسامح، ولأن أصول الحوار فيه نابع من استعمال العقل الرشيد الذي يستضيء بنور الهداية الإلهية.

وعلــى صــعيد الفلســفة الإسلامية: فأكتفي بإيراد مبادئ التسامح ومنطلقاته عند الفيلسوف الكندي، وهي خمسة:

المبدأ الأول: من الضروري البحث عن الحقيقة لذاتها.

المبدأ الثاني: الحقيقة لا يحيط بها رجل واحد، ولم يحط بها جميعهم.

المبدأ الثالث: الكل معرض للخطأ.

المبدأ الرابع: الوصول إلى الحقيقة يتطلب جهود الجميع.

المبدأ الخامس: التسامح ضروري لتحقيق التقدم.

أي إن التسامح في المفهوم الإسلامي مبدأ سامٍ مجرد وموضوعي، يشمل جميع الآفاق الدينية والسياسية والاقتصادية وغيرها، وهذا على عكس ما يقرره بعض الغربيين، مثل فولتير حيث يرى أن التســامح مبدأ نفعي تبادلي، أي إنه يقوم على مبدأ التقابل، وليس فقط على نحو تسامح ديني،

وهو لم يتوقع قيام مجتمع ديمقراطي يصبح فيه التسامح مبدأ مقبولاً، أو على النحو الإسلامي الذي يحترم معطيات التسمح على أنها منطلق رفيع وقاعدة وطيدة، ومنهج سياسي مطبق عملياً ومؤصل نظرياً، يرفض العنف أو التصادم الحربي القائم على الأسس غير المشروعة، والبعيدة عن نزعات التسلط العرقي أو الطمع الاقتصادي، أو النزعة الاستكبارية أو إرواء الأهواء الشيطانية الجامحة والنزعات النفسية، كما شاهدنا في أتون الحربين العالميتين في القرن العشرين، وتطلعات الدول الاستعمارية، وأمزجة القادة المتهورين مثل نابليون بونابرت وهتلر النازي، وبوش وبلير النازيين الجديدين المتحالفين مع الصهيونية، ومع بقية حلفائهما المجامحين المدفوعين بدافع الغرور والاستكبار وحب السيطرة، وبذرائع وهمية، ومظلة مصطنعة في ادعاء مقاومة الإرهاب، وهم الآن يسفكون دماء الآلاف ويثيرون الفتن الطائفية، ويهدمون منشآت العمران وبيوت العبادة، ويعصفون بالثقافة، ويدمرون كل مقومات الحضارة ومفرزات المدنية، ويشوهون كل معاني الديمقراطية بالتعاون مع دهاقنة المخططات الصهيونية.

وفي إطار المنهج الواقعي لتفاعل مبدأ التسامح مع التعددية في الأعراق والأجناس والمعتقدات واللغات والثقافات والألوان والسياسات، نرى في المنظار القرآني أن الإسلام:

أولاً– حقق هذا التفاعل والانسجام بين التسامح والتعدد في مجالات كثيرة، منها تجاوز هذه الخلافات، كما وجّه إليه القرآن المجيد في قوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ۞ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ** .. ﴾ [سورة هود: ١١٧ – ١١٩] علماً بأن الاختلاف في الرأي أو الفكر أو الاعتقاد لا يعكر صفو العلاقات العامة.

ثم تجاوز القرآن الكريم ظاهرة التعدد إلى بناء واقع إيجابي، وهو:

النقلة النوعية إلى أفق التعارف والتعاون والتآلف، لتحقيق المصالح والمكاسب المعيشية، وتبادل المنافع، وإثراء الحياة والنهوض بها في قول الله سبحانه: ﴿ **وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [سورة الحجرات: ١٣].

ومن البراهين القاطعة على إقرار نظام الإسلام قاعدة التعددية: ما نصت عليه صحيفة (دستور) المدينة المنورة في بدء تكون الدولة الإسلامية وبناء الأمة الجديدة عقب الهجرة إلى المدينة، والإقرار بتعايش المسلمين مع الأنصار والمهاجرين مع طوائف اليهود المقيمين في المدينة، فلهم حقوق متساوية مع المسلمين، وعليهم واجبات مشتركة كالمسلمين،

ونص الدستور الإسلامي في المدينة على أن ((لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، ومن تبعنا من يهود، فإن لهم النصر والأسوة، غير مظلومين، ولا متناصر عليهم، وأن بطانة يهود ومواليهم كأنفسهم.. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر المحض من أهل هذه الصحيفة دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه)).

ومن أجلى مظاهر أو حقائق التعددية: الاعتراف بحق المواطنة لغير المسلمين في دولة الإسلام، وتحقيق الاندماج مع الأمة، وتوفير التعايش الودي والسياسي والاقتصادي بين المسلمين وغيرهم، وظل هذا النهج سائداً في تعايش غير المسلمين مع المسلمين على مدى القرون المتلاحقة الأربعة عشر قرناً ونيِّف (ربع قرن في عصرنا إذا لاحظنا التوقيت الهجري).

وكانت المساواة بين المسلمين وغيرهم في الحقوق أساس المواطنة مع احتفاظ كل فريق بالتنوع الديني والاختلاف العقدي، على نقيض ما نجده في الدول العلمانية المعاصرة.

ثانياً- أقام الإسلام أصول التسامح على قاعدة صلبة وقوية وهي الحوار البناء الذي يعتمد على الاحترام المتبادل بين أطراف الحوار، واعتراف كل جانب بالآخر، وتحكيم العقل المجرد والفكر المنفتح، والحرص على الحقيقة، والترفع عن نزاع أو صراع الحضارات، وعن تعصب الأديان، وتشنج المتدينين، وهذا واضح في آيات قرآنية ثلاث:

الأولى- قوله تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [سورة النحل: ١٢٥] وهي الآية الداعية إلى لطف الخطاب، وأسلوب النقاش، ثم التفويض لله في إعلان الحق والحقيقة.

والآية الثانية الداعية إلى الحوار القائم على منطلق الحقيقة والتساوي بين المتحاورين الذي هو أساس الاحتكام في قضايا الاختلاف، وهي قول الله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [سورة آل عمران: ٦٤] أي إن الإقرار بوحدة الإله، ورفض تعدد الأرباب هو الأساس المشترك الذي ينبغي الالتزام به، وللوصول في نهاية المطاف إليه، دون أي اختلاجات أو مباعدات، أو طمس لهذه الحقيقة.

والآية الثالثة ترسم منهج الحوار وأسلوب النقاش الديني الذي يتبعه كل نقاش في مقدَّرات الشعوب والأمم والحريات والحقوق والواجبات وهي قول الله ﷻ: ﴿ **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦].

فإن استعصى الوصول إلى الوفاق، وتباعد المتحاوران، يحسم الحوار بإعلان الموقف النهائي فـي تبين الحـق مـن الضلال، والخطأ من الصواب، وذلك بترداد مدلول الآية الكريمة وهي: ﴿ .. وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة سبأ: ٢٤] فهي فاصلة الحوار والنقاش، وتبيُّن المواقف بعد التأمل والتفكر.

والمشـكلة الأساسية في تباين الاحتكام إلى الحوار الديني أو الحضاري وتفضيل اللجوء إلى إعلان الصراع بين الحضارات تكمن في أن الغرب لا يعترف بمعطيات الشرق، وفي قمتها العطاء الثقافي والحضاري الإسلامي، وإذا لم يعترف أحد طرفي الحوار بالآخر ولم يحترم فكره ونظرته أو منهجه أو غايته، فإن الحوار يجمد، ويبقى الصراع هو المهيمن.

وأمـا المطالبة بتغيير الخطاب الديني الإسلامي فلا داعي لـه، لأن أساليب هذا الخطاب في القرآن تمتاز باللطف واللين، فيكون قديم الخطاب وجديده سواء.

ومـن مفارقـات التسـامح بيـن الشرق والغرب قضية القيم الإنسانية والأعراف والتقاليد والموروثـات الثقافية، فإن الغرب لا يعرف غير القيم المادية النفعية، ولا يقر في قاموس الأخلاق إلا للأخلاق النفعية، وهو بعيد كل البعد عن المجردات واحترام الآداب في ذاتها وقيمتها وفاعليتها، فهم يحترمون الصدق والعدل والوفاء بالعهد، ما دام كل ذلك محققاً للنفع، وجلب المكسب المادي، ولتصـدير المنـتجات، وفتح الأسواق العالمية أمام مصانعهم، لتحقيق المطامع وجمع الثروات، ثم الاحتكار والتحكم في مصائر الآخرين في أقواتهم ومنتجاتهم، وابتلاع كل طاقاتهم، ونهب ثرواتهم الأولية واستباحتها وجعلهم مستهلكين في أسواقهم الإنتاجية، لأنهم يؤمنون فقط بالدنيا، ولا يؤمنون حقـاً بـالله والـيوم الآخر، ويؤلهون القوة، ويعبدون المال، ويؤثرون حب السيطرة والتسلط على الضعفاء. وهذا ينطبق بنحو قاطع على ما يعرف بحق تقرير المصير، حيث يطبقونه بحسب معيار النفع والضرر فقط، كما شاهدنا في عهود الاستعمار الماضي.

وأمـا المسلمون أو الشرقيون مثلاً فهم يمجدّون الفضيلة والشرف والعدل والصدق، والوفاء بالمعاهدات، لما لها من أثر فعال في تحقيق الاستقرار، والوئام، والسلام، والأمن، واجتناب اللجوء إلى التطرف أو العنف أو اندلاع نيران القتال أو الصراع والنزاع.

إن الإسـلام السياسـي والدعوي ومن أجل نشر دعوته وتحقيق الاستقرار في العالم والبعد عـن مفجّرات الصراع، وحماية الأمن وإشاعة فضيلة الحب والثقة والتفاهم بين الشـعوب والأمم فـي الداخـل والخـارج، يُؤْثِرُ السلم ويبتعد عن الحرب والقتال والدمار، ما لم يكن هناك عدوان

من الآخرين بصريح القرآن الكريم: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٨] وقول الله ﷻ في إرساء معالم الوحدة الوطنية والسلام العالمي: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة: ٨ – ٩].

وشريعة الحرب العادلة أو الجهاد تحددت بنحو دائم في النص القرآني الواضح وهو آية: ﴿ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [سورة البقرة: ١٩٠].

وليس في الإسلام تشدد ولا تزمت ولا استعلاء ولا عنف ولا تطرف، ولا ما يسمى بالإرهاب إلا إذا كان في حال المقاومة أو حينما تدور رحى الحرب، قال نبي الإسلام ﷺ: { لا يحل لمسلم أن يروّع مسلماً }[١] أي ولا غير مسلم. وأما الحرب المشروعة ومقدماتها فتقتضي طبيعتها الصمود والبأس والشجاعة والثبات في المواقف الحربية، وهو ما وردت في شأنه الآية الكريمة: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ ﴾ [سورة الأنفال: ٦٠] أليس هذا هو مقتضى الحال ومنطق المجابهة والدفاع والمقاومة؟! وهو ما تفعله جميع الأطراف المتحاربة، فهو إرهاب مشروع من أجل صد العدوان ودحر المعتدين والمحتلين، قال نبينا عليه الصلاة والسلام: { لا تمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا، وأكثروا ذكر الله }[٢].

وهل علاج الإرهاب المزعوم على يد فئة قليلة جداً لا تقرها شريعة الإسلام، يكون بقتل المئات يومياً في أفغانستان والصومال والعراق المذبوح على يد الأمريكان والبريطانيين وحلفائهم، ثم ما قبلهم على يد الصرب في البوسنة والهرسك وكوسفو والشيشان وغيرهم، وفي فلسطين الجريحة على يد الصهاينة، أيكون ذلك عدلاً وحقاً، أم هو زرع كل ألوان الإرهاب والدمار بغير حق ولا شرع ولا قانون مقبول؟!غير ممارسة الغطرسة والتسلط والسيطرة والاحتلال الجديد الذي هو أسوأ بكثير من الاستعمار القديم في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، لأن الاحتلال الأمريكي والبريطاني في العراق وأفغانستان وغيرها يفتقد كل أحوال المشروعية والمصداقية والأمن والحفاظ على الآمنين، وهو الذي يثير الفتنة الطائفية والاقتتال المذهبي ويؤدي إلى الإبادة الجماعية؟!

---

[١] رواه أحمد وأبو داود، وهو صحيح.

[٢] رواه الدارمي.

إن شـــريعة الإسلام تلتزم بقيم الإسلام الكبرى وحقوق الإنسان في بلاد الإسلام وبلاد الشرق والغـــرب، فالحـــرب ضـــرورة، والضرورة تقدر بقدرها، ومعاملة المتحاربين والمدنيين الآمنين، وشـــعوب الـــبلاد الأخرى معاملة قائمة على استئصال العدوان، وإقرار السلم بمعاهدات ومواثيق مـــبرمة، ومعاملـــة الأسرى والجرحى والمرضى معاملة كريمة على نحو أرقى وأثبت مما يقرره القانون الدولي الإنساني المعاصر، بسبب التزام العدل، واحترام الكرامة الإنســـانية لقولـــه تعالى: ﴿ وَلَقَـــدْ كَرَّمْـــنَا بَـــنِي آدَمَ ﴾ [الإســـراء: ٧٠] وتحقيق التكافل الاجتماعي الذي يشمل المسلمين وغـــيرهم، وتوفـــير فرص العمل، والحرية الاقتصادية، واستمرار المبادلات الاقتصادية المعيشية ونحوها، وحظر تجارة الأسلحة حتى لا يتقوى الأعداء علينا، وتتوطد حالة السِّلْم.

والتســـامح بين الأديان وأتباعها في الحقوق والعقود والأموال والملكيات إنما هو ليعم الرخاء الجمـــيع، وتســـتقر الأوضاع، وينعم الناس بالأمن، وتتهيأ الفرصة المواتية لإعمال الفكر والعقل، وشـــحذ الهمـــم، وإذكاء أو قدح المهارات والحرف الصناعية والزراعية والابتكارات، فيعم الخير جميع الناس، وتتهيأ النفوس للحوار البنّاء، وقبول الانفتاح على دعوة الإسلام، واختيار العقيدة الحقة بحرية وكرامة.

الخاتمة

هذه مبادئنا الأساسية في التسامح الإيجابي الشامل لعلاقتنا مع غيرنا في بلاد الشرق والغرب، وهـي مـبادئ نابعـة من شريعة الرحمة ذات النزعة العالمية، القائمة على العقل المتفتح والفكر العميق المدى، وليس من مصلحة دعوة عالمية أن تتصلب أو تتحجر أو تتصادم مع الآخرين، وإنما هـي دعـوة مـرنة فـي صالح الإنسانية جمعاء، لأنها تقوم على أسس الحق والعدل وتوحيد الله والمسـاواة الإنسـانية وحماية كرامة الإنسان، وحريته والإقرار بحقوقه الإنسانية العامة، أياً كان عـرقه أو جنسه أو دينه أو انتماؤه أو مذهبه أو ثقافته، مما يدل على تلازم التسامح مع هذا الدين الحق، القائم على المنطق والمصلحة العامة العليا، وإشاعة الخير للجميع، ونبذ التعصب والانغلاق، وكل ألوان الإساءة.

ولكن التسامح الإسلامي أو السماحة الذاتية في الإسلام تتطلب أمرين:

الأول- الاعـتراف بالآخـر وهـذا يتبعه الاعتراف بالتعددية السياسية والمذهبية والعرقية والدينية والثقافية، ويتطلب أيضاً اللجوء إلى الحوار الحضاري البنّاء من غير أي استعلاء أو تشنج، أو صـراع بين الحضارات، أو الأديان أو المذاهب العقدية، وهذا مقرر في صلب تعاليم الإسلام، ومفقود في خطط الغرب.

الـثاني- اجتـناب اللجـوء إلى العدوان أو الحروب لحل المشكلات، فإن ذلك يولِّد الأحقاد والعـداوات ويعقِّـد نظـام العلاقات العامة، ويمهد لاستعلاء النزعات القومية والعرقية، والأهواء القاتلة، وإشاعة الظلم والقسوة والتصرفات الهجمية الوحشية.

وهذان الأمران أو الظاهرتان هما لدى المسلمين ينظر إليهما على وفق دقيق لتنمية العلاقات الإنسـانية، أما الغرب أو الشرق المعتمد على غطرسة القوة والتفوق العسكري والنهضة الصناعية وغيرها، فليس عنده أي استعداد للإقرار بالقيم الروحية أو الإنسانية أو الحضارية العامة، لأنه يريد طحـن وجود الآخرين المستضعفين، وهذا ما يجعل ظاهرة التسامح بل وحقوق الإنسان في زاوية الإهمال من الناحية الواقعية.

وفـي الواقـع لقد أدت ظاهرة التسامح الإسلامي إلى انتشار الإسلام عن قناعة وحماس في المشـارق والمغـارب، وإلـى جعل الدولة الإسلامية مناخاً صالحاً تتعايش فيه الأديان والمذاهب واللغـات والقوميات والأجناس والألوان على مدى التاريخ القديم والمعاصر، وبهذا انتصر الإسلام وعـمَّ جميع الأقطار، على عكس المنهج الغربي في ضيقه وتبرمه بالتعددية الدينية بل والمذهبية، كمـا كـان الشأن في القرون الوسطى وما تبعها من تطاحن الكاثوليكية وفظائع محاكم التفتيش في أوروبـا ضـد المذاهب الأخرى، وكان التسامح الإسلامي متميزاً بالممارسة أو التطبيق لا بمجرد الشعارات البراقة أو الخادعة.

والحاصل أن ثقافة التسامح تتبلور في المفهوم الإسلامي بما يأتي:

١- ثقافة التسامح: هي المنهج الإسلامي الرصين الذي رافق الإسلام على مدى القرون السابقة والحالية في جميع أحواله وظروفه ضعفاً وقوة، سلماً وحرباً.

٢- ثقافة التسامح: أكسبت الإسلام رفعة ومجداً وسمواً وخلوداً وتفوقاً في جميع مناهج الحياة العامة والخاصة.

٣- ثقافة التسامح: لازمت انتشار دعوة الإسلام في المشارق والمغارب.

٤- ثقاة التسامح: أقامت منهج التحرك الإسلامي على أسس من الحق والعدل والشورى والحرية والمساواة والإخاء الإنساني.

٥- ثقافة التسامح: انطلقت من المعين الإسلامي الخصب على أساس من الثقة بالذات، ومراعاة مقتضيات التعددية الكونية، وتبني مبدأ الحوار الشامخ والقائم على منطق العقل والقوة والذود عن العزة والكرامة وحفظ كرامة الإنسان، وتحقيق آفاق السعادة والاستقرار في العالم كله.

٦- ثقافة التسامح: هي التي ميزت الإسلام بالمرونة والانفتاح على العالم، وحافظت عليه قوياً عزيزاً أمام التحديات المختلفة، وجعلته خالداً باقياً أبد الدهر، لأنه بكلمة واحدة ((شريعة رب العالمين إلى يوم القيامة)).

وأما تاريخ ظهور التسامح في التاريخ الحديث فيرجع في أوروبا إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي حينما اشتدت موجة التعصب الديني الذي أدى إلى الاقتتال الديني العنيف والدموي بين الطوائف المسيحية، وما نجم عنه من أعمال محاكم التفتيش في أوروبا وارتكاب للفظائع والكوارث وسفك الدماء.

وقبل ذلك ما اكتوى به العالم الإسلامي على مدى قرن من الزمان من نيران الحروب الصليبية التي أفرزتها الأحقاد الدينية وغذتها ودفعت إليها بابوية الكنيسة الكاثوليكية وتعصب النصارى ضد المسلمين.

وفي إبان هذه الحروب قدّم العالم الإسلامي أسمى معاني التسامح في الحروب وأعقابها، وانتقلت ثقافة التسامح من الثقافة الإسلامية العربية إلى الثقافة الغربية، لاسيما في الأعمال الإنسانية الخالدة للقائد الفذ صلاح الدين الأيوبي رحمه الله وطيب ثراه، وحقق للمسلمين قائداً نظيره لتحرير فلسطين من الصهاينة الذين لم يُعرف عنهم على مدى ستين عاماً إلا انتهاج طريق الإبادة الجماعية أو التشريد والطرد ومصادرة أموال عرب فلسطين وقتل النساء والأطفال، واصطياد الآمنين وجعلهم أسرى بلغ عددهم أحد عشر ألفاً، منهم وزراء وقادة.

والواقع أن المسيحية الحقة في أصولها ومنهج عيسى عليه السلام لا تعرف غير السماحة والحب والسلام.

وعادت ثقافة التسامح للظهور في العالم الإسلامي والعربي في التاريخ الحديث في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حيث تداعى بعض المثقفين من المسيحيين العرب والمسلمين إلى الدعوة إلى التزام منهج التسامح.

ومع كل هذه المساعي الخيرة وجدت في أوروبا موجات التمييز العنصري في القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، وعادت الفكرة حديثاً إلى ضرورة اندماج الجاليات الإسلامية مع مناهج النظام الغربي في فرنسا وغيرها، وهذا يعني تدمير الهويات الثقافية الإسلامية وإذابة الشخصية والمقومات الإسلامية، وهو أيضاً ما نلمسه على اشده في ظهور التمييز العنصري الصهيوني في فلسطين ضد العرب والمسلمين.

واليوم يريد بعض الدعاة الغربيين إلغاء مفهوم التسامح تحت ستار التعددية الثقافية والحوار بين الأديان ونحو ذلك من العناوين المضللة.

ولكنا نحن العرب والمسلمين ما زلنا نحافظ على إبقاء ظاهرة التسامح أو السماحة وتفعيلها في سلوكياتنا من الناحية الواقعية، ومنهاجنا يتمثل في الوسطية القرآنية الجامعة بين التسامح والحفاظ على الوجود والكرامة، وذلك في ضوء الآيتين الكريمتين وهما: ﴿ **لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [الممتحنة: ٨ – ٩].